التحليل المقارن
لأجزاء الكوميديا الإلهية

النار الإسلامية
في جحيم دانتي

- تصور الأعراف .
- البناء الهندسي للجحيم .
- على باب النار .
- من مشاهد العذاب .
- إبليس وعذاب الزمهرير .

obeikandl.com

obeikandl.com

تصور الأعراف

كان أول مكان يزوره دانتى فى العالم الآخر هو الذى يطلق عليه « الليمبو » أى الأعراف ، وهى منطقة تقع فوق الجحيم مباشرة ، أى أنها البهو الذى يفضى إليه . وهى تنقسم إلى شطرين : أولهما ما يلى الجحيم ، وتسكنه أرواح الأطفال ومن ماتوا دون أن يعملوا خيرا أو شرا ، أى الذين عاشوا – على حد تعبير دانتى نفسه – دون خزى أو ثناء . وهم مختلطون بتلك الزمرة الطالحة من الملائكة الذين لم يكونوا ثائرين ولا مخلصين لله عند عصيان إبليس[1] .

أما الشطر الثانى فهو يتكون من سهل عميق تحف به الأشجار كأنه غابة محاطة سبع مرات بأسوار عالية ومحمية من حولها بجدول جميل ؛ بها سبعة أبواب تفتح على مرعى ذى خضرة نضرة ، وفيها تسكن أرواح من ماتوا على الفطرة قبل الأديان . وأرواح الحكماء والفلاسفة والأبطال ممن لم يعتنقوا المسيحية عند دانتى بالرغم من نبلهم وحكمتهم . وذلك مثل فلاسفة وأبطال اليونان والرومان وبعض عظماء الإسلام مثل ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين ، ولا يعانى جميع هؤلاء من العذاب سوى الحرمان من الجنة ، دون أن يمسهم شىء من الجحيم ، فألمهم الأكبر هو أنهم يعيشون معلقين فى شوق لايحدوه أمل .

ولما كان الفكر المسيحى وتقاليده يخلوان تماما من مرتبة الأعراف هذه ، حتى إن اسمها نفسه لم يوجد إلا فى عصر دانتى ، ويخلوان من أية إشارة محددة لموقعها وشكلها ، فإن مصدر دانتى الوحيد فى تصورها يصبح هو الثقافة الإسلامية التى أفاضت فى الحديث عن الأعراف ابتداء من القرآن الكريم ، وطبقًا للتحليل اللغوى نجد أن الأعراف قبل الإسلام كان معناها الحجاب أو حافة الشىء أو عرف الديك ، وخصصها القرآن الكريم لهذا المكان المتميز من الدار الآخرة . كذلك نجد أن كلمة « لمبوس Limbus » فى الاستخدام الكلاسيكى تعنى الحافة أو الشاطئ ، ولم تستخدم للدلالة على هذه المرتبة فى الدار الآخرة إلا فى القرن الثالث عشر ، خاصة عند دانتى فى الكوميديا الإلهية[2] وقد تفننت كتب الثقافة الإسلامية فى رسم صورة شائقة للأعراف ، فهو حينا سور له باب بين الجنة والنار ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، أو واد عميق خلف جبل مرتفع تجرى

---

(١) انظر : الجحيم لدانتى؛ ترجمة الدكتور حسن عثمان ، دار المعارف ، النشيد الثالث، الأبيات ٣٤–٣٧ .

(٢) انظر: Asin Palacios, Miguel. "La Escatologia Musulmana en la Divina Comedia, Madrid 1951. p. 126.

فيه الأنهار وتنبت منه الأشجار الباسقة ، له عرف كعرف الديك ، كما أن له سبعة أبواب فى روايات أخرى تفصله عن الجنة ، أما أصحاب الأعراف فى الإسلام فهم قوم استوت حسناتهم بسيئاتهم بحيث تجاوزت بهم الأولى عن النار وقصرت بهم الأخرى عن الجنة ، أو هم رجال قتلوا فى سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة ، أو هم قوم صالحون فقهاء علماء لكن فيهم عجب وكبرياء قعدا بهم عن إدراك مراتب الصالحين . كما أن منهم الأطفال ومؤمنو الجن وبعض الملائكة من الذين لا ثواب لهم ولا عقاب عليهم ، والعذاب الوحيد الذى يعانيه سكان الأعراف هو شوقهم إلى الجنة وحرمانهم منها ، إذ لم يدخلوها وهم يطمعون[1] ، وكل هذه العناصر تتطابق مع ما رأيناه عند دانتى ، مما لايفسره إلا احتمال واحد هو استقاء الشاعر الإيطالى من معين الثقافة الإسلامية .

(١) انظر : مختصر تذكرة الإمام القرطبى للإمام عبد الوهاب الشعرانى . طبع صبيح بالقاهرة عام ١٩٦٨ . ص٩٢ وما بعدها .

obeikandl.com

البناء الهندسى للجحيم

يجمع الباحثون على أن كل أوصاف الجحيم الواردة فى العهد القديم والأدب الكلاسيكى وفى العصور الوسطى الأولى - أى السابقة على دانتى – كانت أوصافا بسيطة مبهمة لا لون لها ، ولا تشبه بحال تلك الصور الغنية المجسمة التشكيلية الواضحة التى رسمها دانتى للجحيم ، حتى إن بعض هؤلاء الدارسين قد أخذ على عاتقه مهمة استقصاء مظاهر فقر هذا التراث الغربى فى فترة أطلقوا عليها – خاصة « فوسلير Vossler» ما قبل تاريخ الكوميديا الإلهية » ، وذلك لشرح أصالة دانتى فى ابتكاره لصور الجحيم ، بيد أنه عندما اكتشف تأثير الثقافة الإسلامية فيه أدرك الباحثون أنها هى المصدر الحقيقى الذى نهل منه دانتى كثيرا من أوصافه ، دون أن يطعن ذلك بالطبع فى مدى أصالته أو يقلل بأى شكل من قيمته .

ولنبدأ بالتصميم المعمارى للجحيم ، فإذا كان القرآن الكريم لم يحدد موقع وشكل الجحيم فإن عناصر السنة والتراث قد تكفلت بذلك ، فهى تضع الجحيم – مثل دانتى – تحت القشرة الأرضية ، وهو عبارة عن هوة سوداء مظلمة فى باطن الأرض تصل من العمق فى بعض الروايات إلى درجة أنك لو ألقيت فيها بحجر لم يصل إلى القاع إلا بعد سبعين عاما ، ومدخل الجحيم فى الروايات الإسلامية التى تتعرض لتحديده يقع فى القدس ، مثله فى ذلك مثل ما نجد فى الكوميديا الإلهية ، بل هو على وجه الدقة خلف الجدار الشرقى لمعبد سليمان . كما يقوم خط عمودى من القدس يفضى إلى أعلى حيث الجنة ، فى لون من وحدة التصور المعمارى للعالم الآخر فى كل من الروايات الإسلامية والكوميديا الإلهية ، ثم تنحدر طبقات الجحيم فى أعماق الأرض وهى التى يعبر عنها فى النصوص الإسلامية بأبواب الجحيم ، والمقصود بها – كما جاء شرح ذلك فى بعض الروايات – أنها أدرك ودرجات بعضها فوق بعض ، فقد روى عن الإمام على بن أبى طالب أنه سأل أصحابه : كيف أبواب جهنم ؟ فقالوا : هل مثل أبوابنا هذه يا أمير المؤمنين ، فقال لا . هى هكذا بعضها فوق بعض[1] .

ولعل أكبر مؤلف إسلامى حاول أن يرسم بدقة التخطيط التفصيلى للجحيم طبقا للتصور الصوفى هو ابن عربى ، حيث يقدم لنا هذا التصور على أساس أنه هوة سحيقة مكونة من سبع درجات دائرية هى : سجين والحطمة واللظى وسقر والسعير والجحيم

---

(١) انظر : نفس المصدر السابق . ص ١١٢ .

وجهنم . ولكل درجة نوع خاص من المذنبين تبعًا للجرم الذى اقترفوه وللعضو البدنى الذى استخدم فى ارتكابه ، وهى على الترتيب البصر والسمع واللسان واليدان والبطن والفرج والقدمان . ومعنى هذا أن تقسيم النار إلى درجات يقوم على معيار خلقى يشبه نظيره عند دانتى فى الكوميديا الإلهية ولا يعتمد على أساس عقائدى صرف . بل نجد ابن عربى يمزج المعيار الخلقى بالعقائدى عندما يقسم كل درجة إلى دركات ومنازل وخوخات طبقات لعقائد المذنبين . وعلى هذا فإن كل درجة تنقسم إلى شطرين : الأول خاص بمقتر فى الذنوب الحسية التى تمارس بعضو بدنى معين، والثانى خاص بمرتكبى الذنوب الباطنية وهى الشرك والكفر والكذب والنفاق . وقد بلغ هذا التقسيم من الوضوح والدقة عند ابن عربى إلى الحد الذى حوله فيه إلى رسم هندسى فى مجموعة من الدوائر المتداخلة[1] .

وعندما أخذ شراح دانتى فى مطالع هذا القرن فى توضيح مراتب الجحيم عنده برسوم هندسية كانت المفاجأة كبيرة عندما تبين التطابق الشديد بينه وبين ابن عربى ، مع فارق واحد وهو أن درجات الجحيم عند الشاعر الإيطالى عشرة ، بينما هى سبع درجات فى التراث الإسلامى ، إلا أنها دوائر متداخلة بنفس الطريقة التى تضيق بها كل دائرة عما تسبقها وتعمق عنها ، كما أن نظام « الإسكان » فى هذه الدوائر يشبه إلى حد كبير ما وجدناه عند ابن عربى من قبل .

فالقدر المشترك إذن بين دانتى والتراث الإسلامى فى التصور المعمارى للجحيم هو أنه تحت سطح الأرض توجد هاوية ضخمة على شكل قمع حافتاه إلى أعلى ، وهو عبارة عن طبقات أو درجات مستديرة كل منها خاص بعقوبة ذنب أو مهيأة لرتبة من مراتب المعذبين ، وكلما هبطنا إلى أسفل وجدنا من ثقلت ذنوبهم واشتدت عقوبتهم ، وتنقسم هذه الطوابق إلى أقسام فرعية طبقا لمراتب الذنوب الأخلاقية . وقد كان بوسع دانتى أن يعدد من الطوابق ما شاء دون أن يحصرها فى رقم صغير تتفرع منه أقسام ثانوية ، لكنه فضل متابعة النموذج الإسلامى الذى يقسم الجحيم إلى طبقات عامة تحتوى على تقسيمات أخرى فرعية تخدم الهدف الأخلاقى ، وهذا ما سماه شراح دانتى بالبناء الأخلاقى للجحيم ، وهو مستقى كما نرى من الروايات الإسلامية .

وقد قامت فى سبيل القطع الجازم بالتأثير الإسلامى فى دانتى فى هذا الصدد عند بداية القول بذلك عقبة صغيرة ، وهى أن بعض قصص المعراج الشائعة تضع الجحيم فى

---

(١) انظر : الفتوحات المكية لمحى الدين بن عربى . طبع دار صادر بيروت – المجلد الثالث . ص ٤٢٦ .

السماء الثالثة بينما تضعه الكوميديا الإلهية تحت الأرض ، لكن إذا أخذنا فى الاعتبار أن بعض قصص المعراج الأخرى تضع الجحيم تحت الأرض مثل قوله : « فانطلق بى حتى أتى إلى مالك خازن النار ، فقال : يا مالك ، ربك يأمرك أن ترى محمدًا ﷺ ما أعد لأعدائه . قال انتظر يا محمد قلت نعم ، ففتح الباب فإذا أنا أنظر إلى واد تحت بيت المقدس يقال له وادى جهنم وإذا فيه من العذاب الشديد ما يذهب العقول .. إلخ »[1] ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن قصة « معراج محمد » المترجمة ، وهى منبع التأثير المباشر –تضع الجحيم فى نفس موقع جحيم دانتى[2] أدركنا أن الصعوبة وهمية لا قيمة لها ، فعندما يصف الأرضين السبع – وكلها عند الجحيم – يقول إنه تحت الأرض الأولى توجد أرض أخرى كلها من نار وسكانها وبحارها وأسماكها من نار كذلك . وعندما تأخذ هذه القصة أيضًا فى الوصف التفصيلى للجحيم فى الفصل الواحد والسبعين فإنها تضعه فى قلب الأرض أو الأرضين السبعة وكلها تقع تحت أرضنا البشرية ، وسابع أرض هى مقام إبليس . وهكذا ينطبق التخطيط الطوبوغرافى للجحيم عند دانتى على نظيره وأقرب ما يرتبط به من التراث الإسلامى ، لا فى أسسه العامة فحسب ، وإنما فى تقسيماته المفصلة التى تجعل لكل نوع من الذنوب درجة من العذاب . وحتى فى أسماء طبقات الجحيم أو أبوابه نجد تطابقًا شديدًا بين ما ورد فى قصة « معراج مجمد » مع نموذج دانتى ، إذ تقوم هناك سلسلة من العناصر الطبيعية من جبال وأنهار وآبار وبحور ووديان وقلاع مما كان يعبره دانتى فى مسيرته عبر درجات جهنم . ولم يسبق لأى ثقافة معروفة أن قدمت نموذجا مكتملا غنيًا له مثلما قدمت الثقافة الإسلامية . فدانتى يطلق أسماء محددة على قلاع الجحيم مثل مدينة « ديتى » ومنطقة « ماليبولجى » ذات الحفر العشرة الحزينة ومنطقة « قابيل » وكل منها يتميز إما بجب سحيق أو واد أليم أو غابة مليئة بشجر الزقوم بنفس الطريقة التى وصفت بها جهنم فى التراث الإسلامى إذ أخذت أسماء محددة مثل حطمة وسعير وسقر وسجين والهاوية وامتلأت كل واحدة منها بأنواع خاصة من المذنبين وأهل النار ، مما يؤكد العلاقة الداخلية بين هذه التصورات بطريقة موضوعية لا تدع مجالا لنسبتها إلى مجرد التوافق والصدفة .

---

(١) انظر : مخطوطة مجهولة المؤلف لقصة الإسراء والمعراج بدار الكتب المصرية فى مجموعة تحت رقم ١٩٩٣ . ١٤٤ .

(٢) انظر : عرض قصة معراج محمد فى آخر الكتاب ؛ الفصلين ٥٤ و ٦١ .

على باب النار

جاء فى بعض روايات التراث الإسلامى للمعراج أن عفريتا من الجن اعترض طريق الرسول عليه السلام بينما كان فى طريقه إلى زيارة النار ، وكان العفريت ممسكا بعصا غليظة مشتعلة ، وسد السبيل أمام الرسول محاولا الهجوم عليه ومطاردته ، ولكن جبريل يطمئن الرسول ويعلمه صلاة إذا تلاها أطفأت نار العصا وأحبطت خطر العفريت فتقال الدعوات ويختفى العفريت بعد أن تطفأ شعلته ويخر لفيه[١] وكذلك بينما كان دانتى يمضى إلى الوادى الخامس من الجحيم مع فرجيل اعترض طريقهما شيطان أسود وحشى الحركات ، وتقدم نحو دانتى يسعى سعيًا حثيثًا وعلى كاهله خطاطيف مدببة وبصحبته مجموعة أخرى من الشياطين لمطاردة الشاعرين ، ولكن فرجيل يطمئن دانتى ويلتفت نحو رئيس الشياطين تاليًا بعض الكلمات الآمرة التى سرعان ما تكسر غلواء الشيطان ، إذ يفهمه أنه قد أتى بإرادة السماء ليقود دانتى فى هذه الرحلة « وعندئذ كفكف من غلوائه وترك الخطاطيف تسقط إلى قدميه »[٢] .

ومن ناحية أخرى إذا قارنا لقاء الرسول ﷺ بخازن النار وحارسها بالمشاهد النظيرة عند دانتى وجدنا الشبه واضحًا بينهما ، فالرسول يلقى « ملكًا عظيم الخلقة قد خلق من نار جالسًا على كرسى من نار وهو يقطع حبالا من نار .. فقلت . يا جبريل . من هذا ، قال . مالك خازن النار أدن منه وسلم عليه ، فدنوت منه وسلمت عليه فلم أر فى الملائكة أعظم منه خلقة كالح الوجه شديد البطش ظاهر الغضب لو أشرف على أهل الدنيا لماتوا .. فجزعت منه لقلة تبسمه ، قال جبريل : لا خوف عليك ، هذا الملك خلق من غضب الجبار منذ خلقه الله تعالى ماضحك وما تبسم ، يزداد غضبه فى كل يوم على من ليس فى قلبه رحمة ، ينتقم من العصاة والجبارين وأهل الكبائر . فقلت يا مالك : اكشف عن أطباق جهنم لأنظر إليها ، فقال : لا تستطيع النظر إليها ، وإذا النداء : يا مالك لا تخالف له أمرًا ، فعند ذلك فتح له باب جهنم مقدار خرم الإبرة فخرج منها وهج ودخان لو دام ساعة لأظلمت السماوات والأرض .. »[٣] وكذلك نرى فى الكوميديا الإلهية أن الحارس « مينوس » المكفهر

---

(١) انظر: قصة الإسراء والمعراج للعلامة نجم الدين الغيطى ، مكتبة الجندى بالقاهرة عام ١٩٧٠ . ص٣٣ .

(٢) انظر : الجحيم ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد الحادى والعشرين ، أبيات ٢٢/٢٣/١٠٥ .

(٣) انظر : حديث الإسراء والمعراج لابن عباس . نشر مكتبة الجمهورية بالأزهر . ص ١٦ .

ينكر على دانتى رغبته فى ولوج النار وزيارة وديان الجحيم ، وتتطابق أوصافه مع مالك فى هذه الرواية العربية ، فهو متقد مثل الجمرة ، ورفضه جاف وغاضب على من يريد رؤية زبانيته ، والأمر الحاسم الذى يصدر إليه من أعلى فيحطم مقاومته العنيدة هو الذى ينهى الموقف ، والنموذج الآخر لمالك عند دانتى هو الملاح « كارون » الذى يقف فوق المستنقع المكفهر وحول عينيه حلقات من لهب ويقول له ولفرجيل ، لن أقودكما إلى الضفة الأخرى فى الظلمات الأبدية عند النيران والجليد ، ولن تعبرا إلى الجحيم ، فيرد عليه فرجيل بحسم ناقلا إليه الأمر الإلهى : « لا تغضبن ياكارون ، هكذا أريد هنالك حيث يجب أن يفعل ما يراد ، ولا تسلنى على ذلك مزيدًا ، فينطفئ غضبه ولا يملك إلا أن يمتثل[١] .

ويتكرر هذا المشهد المزدوج عند دانتى فى أماكن عديدة ، وكأنه مفتون بالنموذج الإسلامى فلا يفتأ يكرره فى زياراته الأخرى لطبقات الجحيم فمثلا عند دخوله الحلقة الرابعة نجد أن « بلوتون » الحارس هو المكلف بأداء نفس الدور الذى قام به كل من مينوس وكارون من قبل ، فهو يزجر دانتى بصوته الأجش ، ولكن فرجيل يهدئ روعه ويقول له :

لا يؤذينك خوفك ، فمهما يكن له من قوة فلن يمنعك من هبوط هذه الصخرة .

ثم يتجه إلى ذلك الوجه المنتفخ ويقول له :

لك الويل بما يكنه صدرك من غضب .

إن ذهابنا إلى الأعماق ليس دون سبب ، هكذا أريد فى العلياء[٢] وفى الدائرة الخامسة نجد « فيلجياس » أولا ثم الزبانية الذين يحمون أبواب مدينة « ديتى » ثانيا يكررون نفس المشهد ويخضعون لنفس الأمر . وفى مشهد آخر نجد أن ملاكا من السماء هو الذى ينفل الأمر الإلهى ويتولى تنفيذه بأن يفتح الباب بضربة من صولجانه .

وعندما يضع دانتى قدميه فى الدائرة الأولى من الجحيم يهتز السهل المظلم ببركان عنيف وتبعث النار ريحا عاتية تبرق بضوء قرمزى اللون يذكرنا على التو بما ينبعث من ثقب الإبرة من وهج ودخان فى رواية ابن عباس التى ذكرنا طرفا منها آنفا ، لكننا لا نكاد نمضى إلى الطبقة الأولى من الجحيم ، طبقا لرواية « معراج محمد » حتى نجد طبقة أهل الكبائر ، حيث نرى سبعين بحرا من نار ، وعلى شاطئ كل بحر مدينة من نار ،

---

(١) انظر : الجحيم ، الترجمة المشار إليها ، النشيد الثالث ، الأبيات من ٨٢ – ١٠٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ، النشيد السابع ، الأبيات من ١ – ١٠ .

فى كل مدينة سبعون ألف بيت من نار فى كل بيت سبعون ألف صندوق من نار ، وقد حبس الرجال والنساء فى تلك الصناديق مع الحيات التى تنهشهم والعقارب التى تلدغهم وهم فيها يستصرخون . ولا نتوقع بطبيعة الحال أن نرى نفس الصورة فى جحيم دانتى . ولكننا نلاحظ أنه عندما يصل إلى شواطئ بحيرة « استيجيا » يرى فرجيل أسوار المدينة الجهنمية التى يحكمها « بلوتون » والتى ترتفع شاهقة ، فيميز دانتى بوضوح أبراجها التى تبدو كأنها مآذن وهى تشرئب من أعماق الوادى ، لونها أشقر داكن شديد التوهج كأنها خارجة لتوها من النار . فالنار الأبدية التى تستعر بداخلها تصبغ المدينة بلونها الأحمر ، فهى إذن مدينة من نار مثل التى رأيناها فى الرواية العربية . وداخل جدرانها يلاحظ كل من فرجيل ودانتى أن المدينة كلها كما لو كانت مقبرة رهيبة آهله بآلاف التوابيت التى تشبه الصناديق ، وأغطيتها مرفوعة وتنبعث منها ألسنة اللهب والصرخات القاسية ممن يتعذبون فيها[1] .

وهناك تفصيل صغير عن خطوات سكان الجحيم وكيف أنها تمضى دائما نحو الشمال . وقد جهد شراح دانتى فى إضفاء المعانى المجازية والرمزية على هذه الجزئية ، وفاتهم أن التراث الإسلامى هو الذى أوحى لدانتى بها ، فأهل النار هم أهل الميسرة والمشأمة فى النصوص الإسلامية ، وكان ابن عربى يقول بأن أهل النار ليس لهم يمين ، كما أن أهل الجنة ليس لهم يسار ، ويعتمد الصوفى المسلم فى ذلك على نص قرآنى هو قوله تعالى . ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ لأن السعى مشى ، وإنما قال « بأيمانهم » على حد تفسير ابن عربى لأن المؤمن فى الآخرة لا شمال له ، كما أن أهل النار لا يمين لهم[2] .

---

(١) انظر : نفس المصدر السابق ، النشيد التاسع ، الأبيات ١١٥ – ١٣٠ .

(٢) انظر : الفتوحات المكية لابن عربى ، الجزء الأول ، صفحة ٤١٢ وكتاب « أسين بالاثيوس » صفحة ١٤٩ . والآية رقم ٨ من سورة التحريم .

من مشاهد العذاب

يلتقى دانتى فى الدائرة الأولى من الجحيم بمرتكبى خطايا الجسد وهم يتعرضون للعاصفة الجهنمية التى لا تهدأ أبدًا ، والتى لا تكف عن الدوران بهوائها الأسود ، ونفس هذه العاصفة السوداء هى التى نجدها فى التراث الإسلامى ، وهى امتداد للريح المشئوم الذى أهلك الله به قوم عاد عندما كذبوا نبيهم هود وإذا قارنا بعض التفصيلات الدقيقة فى المصادر الإسلامية عن هذه الريح استطعنا أن نلمس وجوه الشبه القوية بينها وبين ما ورد عند دانتى ، من ذلك ما جاء فى قصص الأنبياء وقارنه الباحثون بعبارات من دانتى على الوجه التالى :

من قصص الأنبياء	من الجحيم لدانتى
١ – فساق الله السحابة السوداء التى اختارها	فهبت العاصفة الجهنمية بهوائها الأسود
٢ – رأيت ريحا فيها كشهب النار	ريح متقدة بالنار –
٣ – ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شىء	ريح مضنية أليمة
٤ – الريح العقيم	هواء خبيث
٥ – فتحملهم وتدفعهم حتى هلكوا	ترهقهم وهى تدور بهم
٦ – وتطير بهم الريح بين السماء والأرض	تقودهم فى الفضاء بعنف لا يهدأ
٧ – فجعلت الريح تدخل تحت الواحد منهم فتحمله ثم ترمى به فيندق عنقه[١]	تقودهم هنا وهناك إلى أسفل وإلى أعلا لا يخدوهم الأمل فى[٢] الراحة

□□□

لكننا إذا اكتفينا بما ورد فى قصة « معراج محمد » المترجمة وجدنا فى الفصلين الرابع والخمسين والثالث والستين وصفًا تفصيليا للريح العقيم القاسى العنيف وتشبيهه بالمرأة التى لا تلد ، وهو ينطلق تحت الأرض البشرية يعذب به الله المذنبين فى الجحيم ، أى فى نفس المكان الذى يقابل الدائرة الأولى عند دانتى ، مما يكفى فى حقيقة الأمر لشرح مصادر دانتى الإسلامية فى هذا المشهد ، ويغنى عن اللجوء إلى القصص القديم ومقارنة

---

(١) انظر : كتاب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس لابن إسحق الثعلبى ، طبع مكتبة ابن شقرون بالقاهرة ، بدون تاريخ . ص ٣٨ .

(٢) انظر : الجحيم ، النشيد الخامس ، أبيات متفرقة ، وكتاب « أسين بالاثيوس » ص ١٥١.

الصور الجزئية التى كان يقوم بها « أسين بالاثيوس » لربط دانتى بالتراث الإسلامى قبل اكتشاف المخطوطة المترجمة .

وفى الدائرة الثالثة من الجحيم يرى دانتى صنوف العذاب التى يسامها المتكبرون واللوطيون ، وهى تشبه إلى حد بعيد نظيرها فى التراث الإسلامى فهم يسيرون بلا توقف بطريقة دائرية بينما تهطل عليهم أمطار النار فى ندف كبيرة وتساقط بطىء كما يتساقط الثلج على المرتفعات دون رياح[1] ، وهكذا يسقط عليهم الوهج الأبدى الذى أشعل الرمل وهم عراة يرفعون أيديهم البائسة كى تبعد النار عن جسومهم دون جدوى ، ويكتشف دانتى متعجبا أن أحد هؤلاء المعذبين هو صديقه وأستاذه « برونيتى لاتينى » وقد أنضجت وجهه النار ، فيأخذ فى الحديث إليه وهو يمشى معه فى مسيرته الدائرية ، ويتذكر دانتى ما لأستاذه عليه من جميل النصح والتوجيه بينما يراه مع ثلة من القساوسة والأدباء وذوى الشهرة يلهثون فى سعيهم تحت وابل الجحيم جزاء ما اقترفوه من إثم .

وإذا عدنا إلى التراث الإسلامى وجدنا نظير هذا العذاب ، خاصة فى أقوال المفسرين عند شرحهم للآية الكريمة « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »[2] ومناقشاتهم لهذه النار الماطرة هل تكون بدخان أم لا ، ثم فيما ورد من أحاديث عن عذاب العلماء الذين لا يعملون بعلمهم وكيف أنهم يدورون فى النار ما لهم راحة ولا فترة ، فإذا لقيهم أحد ممن تتلمذ عليهم وسألهم كيف يعانون من هذا العذاب وقد نجوا هم بفضل تعليمهم ردوا عليهم بأنهم كانوا لا يعملون بعلمهم ، أو كما ورد فى البخارى من حديث « يجاء بالرجل يوم القيامة فيطرح فى النار فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون : أى فلان ، ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه[3] » ثم يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، بنفس الطريقة التى وجدناها عند دانتى فى هذه الدائرة . وإذا راجعنا قصة « معراج محمد » المترجمة وجدنا أن عذاب اللوطيين فيها يتمثل أيضا فى انهمار أمطار من نار على جسومهم تحيلها إلى تراب ثم يعاد خلقها من جديد لتصلى دائما سوء العذاب ، أو يتمثل فى حجارة كبريتية ضخمة يلقيها عليهم طير أسود يشبه الطير

---

(١) انظر : الجحيم لدانتى ، الترجمة المذكورة من قبل ، نشيد ١٤ ، أبيات ٢٨ – ٢٩ . وما بعدها .

(٢) سورة الرحمن ، آية رقم ٣٥ .

(٣) انظر : مختصر تذكرة القرطبى للإمام الشعرانى ، ص ١٢٣ .

الأبابيل الذى قذف قوم لوط بحجارة من سجيل ، فتلتقى فى عذابهم صور شديدة القرب من التى رأيناها عند دانتى فى هذه الدائرة الثالثة .

وهكذا كلما تابعنا مشاهد العذاب فى الجحيم وجدنا تطابقا واضحا فى الأوصاف التفصيلية وتعرفنا على مزيد من وجوه استفادة الشاعر الأيطالى بالتراث الإسلامى ، فنقرأ مثلا عن قصة المعراج هذا المشهد : « ثم نظرت فرأيت أقواما مشافرهم كمشافر الكلاب والإبل ، والزبانية تقمعهم بمقامع من حديد متوهج ، وتدخل الحيات من أفواههم فتقطع أحشاءهم وتخرج من أدبارهم ، فقلت :من هؤلاء ؟ ، قال : الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ، ثم نظرت وإذا بقوم بطونهم كأمثال الجبال تضطرم بالحيات والعقارب ، كلما هم أحدهم أن يقوم سقط على وجهه من عظم بطنه ، قلت : من هؤلاء ؟ . قال : هم أكلة الربا فى الدنيا .

تلك الصور وغيرها نراها فى جحيم دانتى عندما يصف عذاب الجشعين واللصوص فى طبقات متعددة من الجحيم ، مثل قوله :

يطلق المطر عواءهم كالكلاب ذوى المشافر المتوحشة ، وقد احمرت عيونهم وتدلت بطونهم الكبيرة .

ورأيت هناك حشدًا من الأفاعى العجيبة الأنواع حتى ليهرب دمى لذكراها . وعلى الكتفين وخلف الرأس من هذا اللص استلقى تنين مفتوح الجناحين يحرق كل من يلاقيه . ثم انهالت عليه هراوة هرقل بمئات الضربات[1] .

ثم نقرأ أيضا فى الروايات الإسلامية هذا الوصف : « ثم نظرت فرأيت أقواما يستغيثون من العطش فتأتيهم الزبانية بأقداح من نار ، فإذا تناولوها سقط لحم وجوههم من حرها ؛ فإذا شربوها قطعت أمعاءهم وخرجت من أدبارهم »[2] .

فنجد أن هذا يعادل عذاب المزورين فى الجب العاشر من الحلقة الثامنة عند دانتى حيث يقول :

« ورأيت واحدا كان يبدى صورة الطنبور من الاستسقاء الثقيل الذى جعله يقفى شفتيه مفتوحتين كما يفعل المحموم عندما يدير إحداهما إلى الذقن والأخرى إلى أعلى بفعل العطش .. وليكن عذابك فى عطش يشقق لسانك وماء كريه يجعل بطنك هكذا حجابا

---

(١) انظر : الجحيم ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، الأناشيد ٦ و ٢٤ و ٢٥ مواضع متفرقة .

(٢) رواية ابن عباس للإسراج والمعراج ، نفس الطبعة المشار إليها ص ١٦ .

أمام عينيك .. فإذا قلت وأسفاه أشتهى قطرة ماء فإن القنوات الباردة تجعلك تشعر بجفاف يفوق السقام الذى ينزع من وجهك اللحم[١] » .

ونمضى كذلك فى قراءة الرواية الإسلامية فنجد هذه الصورة : « ورأيت رجالا ونساء معلقين بألسنتهم بكلاليب من نار ولهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يشهدون الزور ويمشون بالنميمة ويقعون فى أعراض الناس » فنتذكر تلك الصورة التى بدا عليها بعض المعذبين فى النشيد التاسع والعشرين من جحيم دانتى وقد ترقش جسدهم بالقشور من الرأس إلى القدم ، وانهالوا على جلودهم بالأظافر ينزعون قشورها وجربها كما تفعل السكين بزعانف الأسماك .

كذلك نرى من مشاهد العذاب فى الرواية الإسلامية هذه الصورة : « ثم رأيت رجالا ونساء يعذبون فى النار ، قد قام عليهم زبانية بمقامع من حديد ، كلما استغاثوا يطعنونهم برماح من نار فى بطونهم ويضربونهم بسياط من لهب ، فلم أر أحدا من أهل الكبائر أشد عذابا منهم ، فقلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين عقوا والديهم . ثم رأيت أقواما تذبحهم الزبانية بسكاكين من نار ، كلما ماتوا عادوا كما كانوا ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يقتلون النفس التى حرم الله ظلمًا وعدوانا » فإذا ما تصفحنا وجوه العذاب فى جحيم دانتى قابلنا نظير هذه الصور ، خاصة فى الجب الخامس من الحلقة الثامنة حيث رأى الغارقين فى بركة من القطران المغلى ، كلما طفا المعذبون فيها إلى السطح ضربتهم الشياطين بمئات الخطاطيف الحديدية كى يغمسوا وجوههم وجسومهم وسط القطران الملتهب ، وفى الجب التاسع حيث رأى مبتورى الأعضاء بالسكاكين القاطعة ومجدوعى الأنف حتى أسفل الحاجبين ، ومن لم تكن له سوى أذن واحدة ، ومن فقئت عينه ، ومن قطع لسانه فى حلقه ومن بترت يداه وهو يرفع ساعديه فى الهواء المظلم حتى لوث الدم وجهه ، وأخيرًا رأى جذعًا من غير رأس ، فأمسك الرأس المقطوع من الشعر فكلمته ، إذ بعثت فيها الحياة مرة أخرى لتذوق مزيدًا من العذاب[٢] .

كما يبدو أن عذاب المنافقين عند دانتى فى الوادى السادس من « ماليبولجى » شديد الشبه بنظيره فى التراث الإسلامى ، فهم قوم يعلوهم الطلاء ويدورون كثيرًا بخطى بطيئة وهم يبكون ، ويبدو على سيماهم الإعياء والوهن ، ويرتدون عباءات مذهبة من الخارج حتى لتخطف الأبصار ، لكن باطنها كله من رصاص شديد الثقل . ونفس هذه الصورة

---

(١) انظر : الجحيم ، نفس المصدر ، النشيد ٣٠ ، أبيات متفرقة .

(٢) انظر : الجحيم ، الترجمة المشار إليها ، الأنشودة ٢٨ أبيات من ٢٢ – ٨٣ .

نجدها فى التراث الإسلامى فى مجال الحديث عن عذاب البخلاء وكيف أنهم يمضون يوم القيامة خافضى الرءوس تحت ثقل كنوزهم التى ادخروها فى الحياة .

وكذلك عند الحديث عن الكفار عمومًا وكيف أنهم سيلبسون سرابيل من قطران وتغشى وجوههم النار ، وفى قصة « معراج محمد » المترجمة نرى هذا اللون من العذاب على وجه التحديد فى الفصلين الثامن والخمسين والسابع والسبعين حيث توصف الأحجار الكبريتية التى تربط فى رقبة المذنب ويلقى معها فى نار جهنم فتتقد به فى شعلة واحدة تخطف بلهيبها الأبصار ويلبس أحد عقارب جهنم المذنبين بسبعين جلد يبلغ سمك كل جلد سبعين ذراعًا وحشو ما بين كل جلد وآخر آلاف الحيات الصغيرة التى تعضه وتنهشه ، وهذا هو نفس العذاب الذى يصفه دانتى فى الوادى السابع من « الماليبولجى » حيث تطارد اللصوص أعداد رهيبة من الزواحف المتوحشة تنهشهم وتبث السم فى أجسادهم حتى تتحلل ثم تتماسك مرة أخرى ليذوقوا سوء العذاب . ومع أن أسين بالاثيوس قد ذهب يلتمس نظير هذا العذاب فى أشتات متفرقة من عناصر التراث الإسلامى إلا أننا نجده مجتمعًا فى نص قصة « معراج محمد » المترجمة .

وعندما وصل دانتى إلى بعض وديان الجحيم وجد أقوامًا يمضون باكين صامتين قد التوت أعناقهم بين الذقن وأول الصدر ؛ إذ استدار وجههم للخلف وكان عليهم أن يسيروا إلى الوراء بعد أن امتنع عليهم النظر إلى الأمام وانقلبت أوضاعهم حتى بلل بكاء الأعين منهم قناة الردفين وأصبح كتفهم هو صدرهم فهم ينظرون إلى الوراء ويسيرون إلى الخلف[1] . وقد أدهش هذا اللون من العذاب شراح دانتى فأشادوا بأصالته المطلقة وعدم وجود أى نظير له من قبل ، دون أن يفطنوا إلى أنه تكرار لصورة قرآنية إسلامية فى قوله تعالى ﴿من قبل أن نطمس وجوهًا فنردها على أدبارها﴾[2] إذ أنها كما ورد فى تفسير الطبرى : أى نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى ، ونجعل لأحدهم عينين فى قفاه فيمشون عل أعقابها وقد تحولت وجوههم إلى ظهورهم .

تقدم دانتى مع فرجيل قاصدين منطقة الحلقة أو الدائرة التاسعة ، فظن دانتى أنه رأى أبراجًا عالية ولكن رفيقه أوضح له أن ما رآه ليس أبراجًا بل هم جماعة من المردة حول شاطىء البئر أو الجب ، وتبين دانتى أجسامهم عند اقترابه منهم ، فرأى أحدهم – وكان ذا حجم ضخم – من الرأس إلى سرة البطن ، وهو نمرود ملك بابل الذى ورد ذكره

---

(١) انظر الجحيم ، الترجمة المشار إليها ، النشيد العشرون ، الأبيات من ٧ – ٢٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٤٧ .

- فى العهد القديم ، ثم رأى « إفيالتس » المارد الذى ثار على « جوبيتير » فى الميثولوجيا اليونانية و« أنتيوس » الذى لم يثر على الآلهة ولذلك طلب منه فرجيل أن يحملهما إلى الدائرة التاسعة ، فحملهما المارد بيديه كأنه برج كبير وهما حزمة صغيرة ، ثم وضعهما برفق فى دائرة يهوذا وارتفع كسارية فى سفينة[١] وقد تفنن دانتى فى وصف هؤلاء المردة ، فبدا له وجه أولهم وهو نمرود ضخما طويلا كقبة كنيسة القديس بطرس فى روما ، وتتناسب معه سائر عظامه حتى يبلغ الجزء الظاهر منه ثلاثين شبرًا كبيرًا ، ومعنى هذا أن قامة ذلك المارد تبلغ ٤٣ ذراعًا على الأقل طبقًا لتقدير الشراح[٢] .

وبالرغم من أن شخصيات المردة هذه لها سوابقها فى الثقافة الإغريقية والمسيحية لكنها لا تضعها فى الجحيم ، ويظل التراث الإسلامى هو المصدر الوحيد الذى يضع هؤلاء المردة بأحجامهم الضخمة ورءوسهم التى تشبه القباب العظيمة وطولهم الذى يبلغ فى بعض الروايات اثنين وأربعين ذراعًا أيضًا فى الدرك الأسفل من النار ، وهو يصفهم بهذه الضخامة كما جاء فى تذكرة القرطبى مثلا من « باب تعظيم جسم الكافر فى النار وكبر أعضائه بحسب أنواع كفره » أى لكى يتيح الفرصة كى يقع عليهم أكبر قدر من العذاب . ويخص منهم نمرود كنموذج للكبرياء الممقوتة والتسلط والجبروت ولذا يقرنه دائمًا بإبليس ويجعلهما أشد الناس عذابًا فى الآخرة[٣] .

---

(١) انظر : الجحيم من الترجمة المذكورة ، النشيد ٣١ ، أبيات متفرقة .

(٢) انظر : كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه من قبل ص ١٦٣ .

(٣) انظر : نفس المصدر السابق ص ١٦٣ .

إبليس وعذاب الزمهرير

صنف واحد من العذاب هو الذى سلط على سكان الدائرة التاسعة من الجحيم وهو العذاب بالبرد الشديد، حيث رأى دانتى بحيرة كان لها من التجمد صورة الزجاج لا الماء، وقد انغمس فى ثلجها المعذبون حتى أزرقت ألوانهم وتجمد الدمع على خدودهم من قسوة الزمهرير وتشوهت وجوههم من أثره فتساقطت آذان بعضهم وأصبح الآخرون فى شكل الكلاب .

ومعروف أن العذاب بالبرد لا نظير له فى التراث المسيحى مما حير شراح دانتى ، لكن عند تأمل التراث الإسلامى نجد أن القرآن الكريم يصف أولا الجنة بأنها ﴿ لا يرون فيها شمسا ولازمهريرًا ﴾[1] وبناء على ذلك فإن المفسرين قد ملأوا الجحيم بالنوعين من الحرور والزمهرير. ويرى الجاحظ فى كتاب « الحيوان » أن الفرس نظرًا لتقديسهم النار لم يتصوروا عذاب الآخرة إلا من البرد الشديد احترامًا للنار من ناحية واستجابة لطبيعتهم كسكان مناطق جبلية أشد مايخيفها هو العواصف الثلجية من ناحية أخرى، وأيا ماكان الأمر فسرعان ما وضعت الأحاديث التى توضح كيفية العذاب بالبرد مثلما ورد فى التذكرة أن « بعض الصحابة سأل : وما زمهرير جهنم يا رسول الله ، قال : جب يلقى فيه الكافر فيتمزق من شدة برده بعضه من بعض » . ولم يكن دانتى بحاجة إلى أن يطلع على هذه المصادر الإسلامية كى ينقل فكرة العذاب بالزمهرير ، فقد سيقت إليه مكتملة فى قصة معراج محمد ، فى الفصل الستين عند الحديث عن الزمهرير الذى يعصف بمنزل إبليس فى الجحيم .

وكم كانت غريبة هيئة إبليس فى الكوميديا الإلهية وقد استقر فى الدرك الأسفل من النار باعتباره امبراطور العالم الأليم ، وقد لقيه دانتى وقد خرج بنصف صدره من الثلج ونبتت فى رأسه ثلاثة وجوه ومن تحت كل منها خرج جناحان كبيران ليست بذات أرياش ، بل فى صورة جناحى الخفاش ، وأخذ يحركهما حتى خفقت عنه ثلاثة أرياح ، وبكى بست أعين فتقاطر على أذقانه الثلاث الدمع والرغوة الدامية ، وفى كل فم من أفواهه الثلاث أخذ يمضغ بأسنانه أحد الخونة الآثمين وهم « يهوذا وبروتس وكاسيوس » . ولكن أعجب ما فى أمر إبليس هو أنه على ضخامته الهائلة لم يكن منتصب القامة بل كان

---

(١) سورة الإنسان ؛ الآية رقم ١٣ .

مزروعًا رأسًا على عقب بعد أن ألقى من السماء مطرودا من رحمة الله واستطاع دانتى أن ينزلق من فوق شعيرات فخذه الغليظة كدرجات السلم حتى وصل مع هاديه إلى ثغرة من صخرة عبر كهف طبيعى ذى أرض وعرة يعوزها الضياء ، ومنها نفذا إلى مركز الأرض حتى وصلا إلى النصف الثانى للكرة الأرضية حيث الضياء والسماء والنجوم[١] وبالرغم من اعتماد هذا الوصف على كثير من العناصر الكلاسيكية والمسيحية إلا أنه مفعم بالتفصيلات التى لم يجد الشراح لها مصدرًا سوى عبقرية دانتى الشخصية .

ولاينقص من هذه العبقرية فى شىء أن يلتمس الباحثون فى التراث الثقافى الإسلامى مصدرًا لكثير منها. فعذاب إبليس بالثلج والزمهرير كما قلنا شائع فى هذا التراث، فهو أولا أشد الخلق عذابًا لأنه هو الذى سن الشرك ومعصية الله، ثم إن الزمهرير هو الذى يقابل النار، ولما كانت نشأة إبليس من النار فإن عذابه يصبح بالزمهرير الذى يناقض ما هو الغالب عليه فى أصل خلقه على حد تعبير ابن عربى فى فتوحاته.وصورة هبوط إبليس بهذا الشكل الغريب لها سوابقها أيضًا فى هذا التراث أيضا حيث ورد فى بعض كتبه : « ثم بعث الله من تحت العرش ملكًا فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه، إحدى يديه فى المشرق والأخرى فى المغرب باسطين قابضين على قرار الأرضين حتى ضبطها ولم يكن لقدميه فى الهواء موضع قرار»[٢] أى أنه مقلوب أيضًا رأسًا على عقب.

فإذا رجعنا إلى قصة « معراج محمد » التى يرجح اطلاع دانتى عليها وجدنا أن مقام إبليس فى الأرض السابعة ، وهو هناك موثق فى أغلاله منذ عصيانه لله تعالى ، حيث ألقته الملائكة بعد أن صفدوه بالسلاسل الحديدية وربطوا يديه إحداهما من أمام والأخرى من الخلف ، وحجمه أيضا هائل مريع ، فله رأس تصل حتى أرضنا هذه فتنفذ منها قرونه ، أما وجوهه العديدة فهى موصوفة بدقة بالغة وتفاصيل مترفة تربو بكثير على ما وجدناه عند دانتى . وقد أرسل الله تعالى واحدًا من الملائكة الثمانية من حملة العرش ليرفع على كتفيه الأرضين السبع . هذا الملاك له أيضا جسد هائل وأربعة وجوه وأربعة صور وأشكال منها الإنسان والنسر والثور والأسد . وله ستة أجنحة ، وجسمه كله ملىء بالعيون. ويبدو أن دانتى قرن هذين الوصفين واستفاد

---

(١) انظر الجحيم – ترجمة الدكتور حسن عثمان – الأناشيد ٣٢ – ٣٣ – ٣٤ .

(٢) انظر : قصص الأنبياء المسمى بالعرائس الثعالبى . ص ٢١ .

بهما معا فى تشكيله لصورة إبليس، كما يلاحظ أن مقام إبليس فى قصة المعراج محوط ببرد الزمهرير من ناحية وبنار جهنم من ناحية أخرى حتى لا يحرم من كلا النوعين من العذاب لفداحة جرمه وعظم ذنبه .

وبهذا يتضح لنا أن كثيرًا من المواد الأولية التى صاغ منها دانتى صوره وتصوراته عن الجحيم مستقاة من التراث الإسلامى ، وإذا كانت القدرة الشعرية تعتمد أولا على عبقرية الصياغة والسياق الفلسفى والفكرى الجديد فإن هذا التأثير لا يقلل بحال من قيمة الشاعر الإيطالى بل يوضح طبيعة إبداعه ومدى أصالته .

obeikandl.com